إبراهيم النعمة



من خصائص الأمة الاسلامية



دار المأمون للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ-٢٠١٠م

الاسناد الصحيح المتصل

من خصائص الأمة الاسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمدك اللهم ونستهديك، ونستعين بك ونتوكل عليك، ونصلي ونسلم صلاة طيبة زاكية مباركة، على من ختمت به الشرائع وأرسلته رحمة للعالمين–سيدنا محمدﷺ– وعلى صحابته الذين اصطفيتهم من خلقك، وائتمنتهم على تبليغ شرعك إلى الناس كافّة. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وآته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته؛ إنّك لا تخلف الميعاد.!

أمّا بعد:

فإنّ السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر الشريعة الإسلامية، وتأتي بعد القرآن الكريم في المنزلة: فهي مفسّرة له ومبينة. وحين نلقي نظرة في التشريعات الإسلامية، نرى أكثرها كان مبنيا على السنة النبوية. ولا ريب أنّ السنة هذه ثروة كبيرة واسعة زاخرة، تُستنبط منها الأحكام التشريعية، ويُؤخذ منها ما يحتاجه الناس في كل زمان وفي كل مكان، وقد سجلت كل كبيرة وصغيرة من سيرة النبيﷺ وهديه في الأقوال والأفعال، وبخاصّة بعد أن أكرمه الله بالنبوة. لقد كانت الدقة في تسجيل سيرته وتبيان سنته في التشريع والأخلاق، تُعدُّ خصيصة من خصائص الأمّة الإسلامية تفقدها سائر الأمم، وهيهات أن نجد نبيا من الأنبياء أو رسولا من الرسل فضلا عن غيرهم اهتمّ أتباع أي واحد كان منهم بكتابة سيرة ذلك النبي أو الرسول، وتبيان أحكامه وتوجيهاته بالسند الصحيح المتصل، كما نجد ذلك في الأمّة الإسلامية. وكان الفضل في ذلك لفرسان الأسانيد الذين تحمّلوا التعب والنصب، وحرموا أنفسهم من الراحة، من أجل تبيان صحيح الحديث من ضعيفه وموضوعه؛ إذ لولاهم لضاع الكثير من منهاج النبيﷺ وتشريعاته وأخلاقه. أجل، إنّ السنة النبوية تحتوي على أصول مهمة في التشريعات والقيم والمثل، بلّغها النبي الكريم في ثلاث وعشرين سنة هذه الثروة من السنة قيّض الله لها من يهتم بها منذ فجر

الإسلام الأوّل: إنّهم فرسان الأسانيد. وكل من يتأمّل باهتمام المسلمين بالإسناد منذ ذلك الوقت، يُدرك أنّ اللهﷻ تكفّل بحفظ سائر الوحي إلى نبيّه محمدﷺ من إفك الدساسين وافتراء المفترين كما تكفّل بحفظ القرآن الكريم قال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ سورة الحجر/ ٩

وإذا كان من العلماء من ادعى بأنّ الله تكفّل بحفظ القرآن الكريم وحده ولم يتكفّل بحفظ سائر الوحي الذي ليس بقرآن؛ فإنّ ابن حزم الظاهري ردّ على هذه الدعوى فقال:

((هذه دعوى كاذبة، مجرّدة عن البرهان، وتخصيص للذكر بلا دليل،وما كان هكذا فهو باطل لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾؛ فصحّ أنّ من لا برهان له على دعواه، فليس بصادق فيها. والذكر: اسم واقع على كل ما أنزل الله على نبيّهﷺ من قرآن أو من سنّة وحي يبين بها القرآن. وأيضا فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾؛ فصحّ أنّه عليه السلام مأمور ببيان القرآن للناس))[١].

وهكذا قيّض الله لسنة نبيّهﷺ رجالا ذوي حافظة لا مثيل لها بين الأمم، طافوا شتى الأقطار والأمصار طلبا للحديث الشريف بإسناده، وتحمّلوا من التعب والنصب ما لم يتحمّله غيرهم، وأنفقوا في سبيل ذلك ما كان معهم من مال، فمحّصوا أسانيد الأحاديث النبوية، ودرسوا حياة كل راو من الرواة، ووضعوا القواعد في الجرح والتعديل، وأوجدوا الضوابط للحكم على الحديث بالصحة أو السقم؛ فجاءوا بعلم لم يسبقهم إليه سابق.

وهذا البحث يميط اللثام عن جانب مهم من جوانب اهتمام سلفنا بالإسناد، وبخاصّة ما قام به التابعون. ولا يفوتني أن أذكر أنّي أفدت في كتابة هذا البحث

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١١٨/١، دار الكتب العلمية، بيروت.

من الكتاب الممتع (الإسناد من الدين) للشيخ الفاضل عبد الفتاح أبو غدّة رحمه الله! داعيا من الله أن ينفعني به وينفع قارئه، ومن الله –وحده– السداد والتوفيق.

الإسناد الصحيح المتصل
من خصائص الأمة الإسلامية

تعريف الإسناد

الإسناد لغة: مصدر أسند بمعنى (اعتمد)، وكل ما يستند إليه ويعتمد عليه من حائط أو غيره فهو سند. ويُقال: أسند الحديث: أي رفعه، فهو: رفع الحديث إلى قائله.

الإسناد اصطلاحا: هو الطريق الموصل إلى المتن: أي سلسلة رواة الحديث الموصلة إلى المتن.

وقد سُمّي الإسناد إسنادا؛ لأنّ الحفاظ يعتمدون عليه في الحكم على صحة الحديث أو ضعفه. ويُستعمل (السند) و(الإسناد) كل منهما في موضع الآخر[(١)]. وينصُّ السمعاني على أنّ صحة الحديث لا تُعرف إلا بالإسناد الصحيح فيقول:

((...وألفاظ رسول اللهﷺ لابد لها من النقل، ولا تُعرف صحتها إلا بالإسناد الصحيح، والصحة في الإسناد لا تُعرف إلا برواية الثقة عن الثقة، والعدل عن العدل))[(٢)].

ويُطلق (بهز بن أسد) على الإسناد الصحيح مصطلح العدول المرضيين فيقول:

---

(١) تدريب الراوي شرح تقريب النواوي للسيوطي ص١٥، اعتنى به حسن شلبي وماهر محمد ثملاوي، الطبعة الأولى ١٤٢٧-٢٠٠٦، مؤسسة الرسالة-ناشرون-، وكشاف اصطلاحات الفنون للشيخ محمد علي بن علي محمد التهانوي، ٣٣٥/٢، وضع حواشيه أحمد حسن، الطبعة الثانية ١٤٢٧-٢٠٠٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) أدب الإملاء والاستملاء للإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، ص٤، دار الكتب العلمية، بيروت.

((هذه شهادات العدول المرضيين بعضهم على بعض))[1].

ويقول:

((لو أنّ لرجل على رجل عشرة دراهم ثم جحده لم يستطع أخذها منه إلا بشاهدين عدلين، فدين الله أحق أن يُؤخذ فيه بالعدول))[2].

ولا يكون الإسناد صحيحا إلا إذا اجتمعت في كل راو من رواته صفتان اثنتان هما: العدالة والضبط.

أمّا العدالة، فهي صفة راسخة في النفس، تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة، فهي صفة نفسية، تحمل صاحبها على التخلّق بمحاسن الإخلاق وجميل الصفات.

والعدل: هو المسلم، البالغ، العاقل، السالم من الفسق بارتكاب كبيرة أو الإصرار على صغيرة. وتثبت العدالة بالاستفاضة والشهرة، كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأمثالهم، كما تثبت –أيضا– بتنصيص اثنين من العلماء على عدالته.

وأمّا الضبط، فهو أن يكون راوي الحديث يقظا غير مغفّل، وأن يكون قوي الحافظة إذا حدّث من حفظه من وقت تحمّل الحديث إلى وقت الأداء، فيستطيع استحضار الحديث متى شاء. ويُعرف ضبط الراوي بمقارنة مروياته بمرويات الثقات المتقنين.

وأمّا اتصال السند، فيكون بنقل الراوي العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه، حتى يصل إلى النبيﷺ.

---

(١) أدب الإملاء والاستملاء ص٥٥.

(٢) أدب الإملاء والاستملاء ص٥٥، وفيه ((فبين الله)) وهو تصحيف.

قوة حافظة العرب قبيل مبعث النبيﷺ

كانت الأمّة العربية قبيل مبعث النبيﷺ أمّة أميّة، لا يعرف القراءة والكتابة فيها إلا القليل منهم. لذلك اعتمد الناس –آنذاك– في رواية مفاخرهم وأمجادهم وحروبهم ووقائعهم وأشعارهم وخطبهم ومثالب أعدائهم على الحفظ في الذاكرة، ومعلوم أنّ من يعتمد في حفظه على الذاكرة تتكون فيه ملكة قوة الحفظ أكثر من غيره؛ لذلك قويت الحافظة في العرب: فكان منهم من يسمع القصيدة الكثيرة الأبيات، فيحفظها لسماعه لها مرّة واحدة، يستوي في ذلك العامّة والخاصّة، والصغار والكبار، والذكور والإناث، وهناك قبائل عربية كانت مشهورة معروفة بقوة الحفظ، ومن اشهر تلك القبائل: (قبيلة كلب). ويروي الاصمعي عن عوانة بن الحكم قال: لقي رجل اعرابياً فقال له: (ممن الرجل؟ قال: من قومٍ اذا نسي الناس علمَهم حفظوه عليهم. قال: انت اذن من كلب، قال :أجل)[1].

وظلّت بقيّة باقية عند المتأخرين منهم حتى قال الأصمعي:

((ما بلغت الحلم حتى رويتُ اثني عشر ألف أرجوزة للأعراب))[2].

وهكذا صار كثير منهم سجلا للتاريخ يُهرعُ إليهم في المفاخر والمثالب. وإذا علمنا أنّ الأمة العربية أمّة شاعرة، أدركنا أنّ العرب كانوا يحفظون الأشعار في الذاكرة، ويُحفّظونها لأبنائهم، ويروي تلك الأشعار الخلف عن السلف.

---

(١) معجم الادباء لياقوت الحموي ٥١٤/٤.

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد: محمود شكري الآلوسي، ٣٧/١، عُني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وإذا كان الأمر –كما يُقال–: إنّ الله إذا أراد شيئا هيّأ أسبابه، فإنّ قابلية الحفظ في الذاكرة هيأها الله للأمة العربية؛ ليقوم الناس بحفظ كتاب الله وسنة نبيهﷺ وتبليغها إلى الناس كافّة.

رحلة الصحابة في طلب الحديث

بعد أن توفي النبيﷺ، حرص قسم من الصحابة على طلب الحديث الذي لم يسمعوه، والتأكّد من روايته. فهذا جابر بن عبد اللهرضي الله عنه يرحل من المدينة إلى الشام، ويستغرق سفره شهراً كاملاً من أجل أن يسمع حديثا واحدا من عبد الله بن أُنيس كان قد سمعه من النبيﷺ[1]. ولم تكن هذه الرحلة الوحيدة التي قام بها جابر بن عبد الله من أجل حديث واحد، فقد سار من المدينة إلى مصر بعد أن اشترى له راحلة فركبها، ووصل إلى عقبة بن عامر، فسأله عن حديث واحد، وانصرف قافلاً إلى المدينة[2].

---

(١) عن ابن عقيل أنّ جابر بن عبد اللهرضي الله عنه، حدّثه: أنّه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبيﷺ قال:

((فابتعت بعيرا، فشددت إليه رحلي شهرا حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أُنيس؛ فبعثت إليه: أنّ جابرا بالباب؛ فرجع الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم؛ فخرج فاعتنقني، قلتُ: حديث بلغني لم أسمعه، خشيت أن أموت أو تموت؛ قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: [يحشر الله العباد –أو الناس– عراة غرلا بهما قلنا: بُهما؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ –أحسبه قال: كما يسمعه من قَرُب: أنا الملك، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة)). قلت: وكيف؟ وإنّما نأتي اللهعز وجل عراة بهما؟ قال: ((بالحسنات والسيئات)). ينظر: الأدب المفرد للبخاري ص٢٨٧–٢٨٨، خرّج أحاديثه ووضع حواشيه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) ينظر: معرفة علوم الحديث ص٨–٩.

أمّا أبو أيوب الأنصاري، فقد رحل من المدينة إلى مصر ليلتقي عقبة بن عامر، ويتأكد من حديث كان (أبو أيوب) قد سمعه من النبيﷺ، وشاركه في هذا السماع عقبة بن عامر في ستر المسلم؛ إذ لم يبق أحد سمعه من النبيﷺ غيرهما..فلمّا سمع الحديث من عقبة ((من ستر مؤمنا في الدنيا على خزية[1] ستره الله يوم القيامة)) عاد إلى راحلته، فركبها راجعا إلى المدينة وما حلّ رحله[2].

ويعلّق الحاكم النيسابوري على هذه الحادثة فيقول:

((فهذا أبو أيوب الأنصاري على تقدّم صحبته، وكثرة سماعه من رسول اللهﷺ، رحل إلى صحابي من أقرانه في حديث واحد، لو اقتصر على سماعه من بعض أصحابه لأمكنه))[3].

رحلة التابعين في طلب الحديث

اقتدى التابعون بالصحابة في طلب الحديث، وأبلوا بلاءً حسناً في ذلك، ولقد فاقوا الصحابة في رحلاتهم في طلب الحديث؛ ذلك لأنّ الصحابة تفرّقوا في الأمصار بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية، فكان منهم في مكة، والمدينة، والشام، والكوفة، والبصرة، ومصر، واليمن... فلابد لمن يريد أن يحيط علما بأحاديث النبيﷺ أن يرحل إليهم. ولقد كان التابعي يخرج وما يُخرجه إلا حديث يريد سماعه من الصحابي الذي سمعه من النبيﷺ. وهكذا حمل التابعون ومن جاء

---

(١) الخزية: الشيء الذي يُستحيا منه.

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ص٨، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه: السيد معظم حسين، منشورات المكتبة العلمية، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٩٣/١-٩٤، إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) معرفة علوم الحديث ص٨.

بعدهم الأمانة نفسها بتلك القوة، وذلك الحرص؛ فبلّغوا عن النبيﷺ ما يجب وما يُستحب تبليغه.

ولقد كان التابعون حريصين على سماع الحديث من أفواه الصحابة الذين سمعوه من النبيﷺ، فلم يكتفوا بذكر السند وحده، بل كانوا يقطعون المسافات الطويلة في الفيافي والقفار، ويتحملون مشقات السفر من أجل ذلك، وقد قال أبو العالية (رفيع بن مهران) المتوفى سنة ٩٣هـ:

((كنّا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول اللهﷺ، فما رضينا حتى رحلنا إليهم، فسمعناها من أفواههم))[١].

وقال بشر بن عبد الله الحضرمي المتوفى سنة (١١٠هـ):

((إن كنت لأركب إلى مصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه))[٢]

وقال سعيد بن المسيّب المتوفى سنة (٩٤هـ):

((إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد))[٣].

وحدّث سيد التابعين الإمام عامر بن شراحيل الشعبي المتوفى سنة (١٠٤هـ) مرّة بحديث عن النبيﷺ، ثم قال لمن حدثه به:

((خذها بغير شيء، قد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة))[٤].

---

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص٤٠٢-٤٠٣، مطبعة الجمعية العليا.

(٢) سنن الدارمي ١/١١٤، تحقيق وتخريج السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المحاسن ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

(٣) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص١٢٧-١٢٨، تحقيق: د. نور الدين عتر، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/٩٣، إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

ولا غرو، فقد خرج الشعبي في ثلاثة أحاديث ذُكرت له، فقال: لعلّي ألقى رجلاً لقي رسول الله ﷺ[١].

أمّا أبو قلابة عبد الله بن زيد المتوفى سنة (١٠٤هـ) فقد قال:

((لقد أقمت في المدينة ثلاثاً، ما لي حاجة إلا وقد فرغت منها، إلا أنّ رجلاً كانوا يتوقعونه كان يروي حديثاً؛ فأقمت حتى قدم فسألته))[٢].

لقد كان طلاب الحديث حريصين على أن يشدوا الرحال من بلد إلى بلد آخر؛ من أجل أن يلقوا المحدثين الكبار ويرووا عنهم ((فقد رحل ابن شهاب إلى الشام ليلقى عطاء بن يزيد، وابن محيريز، وابن حيوة، ورحل يحيى بن أبي كثير إلى المدينة للقاء من بها من أولاد الصحابة، ورحل محمد بن سيرين إلى الكوفة، فلقي بها عبيدة وعلقمة وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ورحل الأوزاعي إلى يحيى بن أبي كثير باليمامة ودخل البصرة، ورحل سفيان الثوري إلى اليمن ثم دخل البصرة، ورحل عيسى ابن يونس إلى الأوزاعي بالشام...))[٣].

وهكذا كثرت رحلات التابعين من أجل طلب الحديث بالإسناد.

ولقد بلغ حب طلب الحديث لدى السلف مبلغاً هيهات ان يصله احد، حتى قال شعبة بن الحجاج: (من حدثني فانا له عبد). أما الحافظ (ابن منده)، فقد بلغ حبه في نشر الحديث وتبليغه الى طلبته ان قال: (من حدثتُه فأنا له عبد)[٤].

---

(١) السنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب ص١٧٨، دار الفكر، بيروت.

(٢) سنن الدارمي ١٣٣/١، تحقيق وتخريج: سيد إبراهيم وعلي محمد علي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، دار الحديث، القاهرة. والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص٣٨٠.

(٣) السنة قبل التدوين ص١٨٠-١٨١.

(٤) تذكرة الحفاظ ص١١٦٦، وذيل طبقات الحنابلة ٢٨/١.

ولا بد لنا ان نشير هنا الى ان الرحلة في ذلك الزمان كانت غير مأمونة العواقب، فكان الرحالون يتعرضون للأخطار من قطاع الطرق، والحيوانات المفترسة، واهل المذاهب المارقة، وفي صحبتهم: الجوع والعطش؛ لذلك كان ابراهيم بن ادهم يقول: (إن الله ليدفع البلاء عن الامة برحلة الحديث)[1].

ووصف اسلم بن سليمان حالته في رحلته الى (مروٍ) لسماع الحديث من عبد الله بن المبارك وهو وصف للمرتحلين في طلب الحديث–آنذاك– فقال:

خلّفتُ عرسيَ يوم السير باكية ... يا ابن المبارك تبكيني بِرنّاتِ

خلّفتها سَحَراً في النوم لم أرها ... ففي فؤاديَ منها شبه كَيّات

اهلي وعرسي وصبياني رفضتهمُ ... وسرت نحوك في تلك المفازاتِ

اخاف والله قطّاعَ الطريقِ بها ... وما أمنت بها من لدغِ حيّاتِ

مستوفزاتٍ بها رقشٌ مَشوهةٌ ... أخافُ صولتها في كل ساعاتي

إجلسْ لنا كل يومٍ ساعةً بكراً ... إن خَفَّ ذاك وإلا بالعشيَّات

يا اهل مروٍ أعينونا بكفكمُ ... عنا وإلا رميناكمْ بأبيات

لا تضجرونا فإنا معشر صُبُرٌ ... وليس نرجو سوى ربِ السمواتِ

(١)الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص٤٧، ومقدمة ابن الصلاح ص٢٢٣.

كثرة طلبة الحديث بالإسناد بعد عصر التابعين

وإذا تجاوزنا عصر التابعين إلى ما بعده، رأينا العجب العجاب من إقبال طلبة الحديث على علمائه بالإسناد، حتى إنّ الإنسان لا يكاد يُصدّق ما يقرؤه عن أعداد تلك الجموع، لولا أنّ الذين نصّوا على ذلك محدثون ثقات لا يشك الباحث المنصف في صدقهم وتحرّيهم الدقة فيما يكتبون، وبخاصّة ما ذكره الحافظ الذهبي وابن حجر العسقلاني وأمثالهما.

لقد أقبل طلبة الحديث على سماع وتدوين دروس الحديث بالأسانيد، فإذا علم الطلبة بحضور محدّث إلى بغداد أو غيرها من مراكز العلم، أسرعوا الخطا إلى حضور دروسه، شغفا بحديث النبيﷺ بالإسناد. وقد نقل الذهبي ما ذكره أبو حاتم الرازي حين حضر مجلس سليمان بن حرب المتوفّى سنة (٢٢٤هـ) فقال: إنّ من حضر مجلسه حزر بأربعين ألفا[١]. وقُدّر من حضر دروس عاصم بن علي المتوفى سنة (٢٢١هـ) بأكثر من مائة ألف[٢]. وذكر الفربري أنّه سمع (الجامع الصحيح) من البخاري تسعون ألفاً[٣]. أمّا أحمد بن جعفر الخُتُلّيُّ، فكان في مجلسه سبعة مستملين، يبلّغُ كل واحد منهم الآخر، ويكتب الناس عنه قياماً[٤].

(١) سير أعلام النبلاء ١٥٨/٧، اعتنى به محمد بن عيادي بن عبد الحليم، الطبعة الأولى ١٤٢٤-٢٠٠٣، مكتبة الصفا، القاهرة.

(٢) تذكرة الحفاظ ٤٤٢/٦.

(٣) مقدمة فتح الباري ص٦٨٦، وسير أعلام النبلاء ٢٠٧/٨.

(٤) تذكرة الحفاظ ١٩٦/٣.

كثرة شيوخ الرواية بالإسناد خارج البلاد

لم يرحل الراحلون في طلب الحديث بالإسناد خارج بلادهم إلا بعد أن يستوعبوا الرواية من المحدثين الذين في بلادهم، وبعد ذلك يعمدون إلى الرحلة في شتّى الأقطار والأمصار طلبا للحديث، وسئل الإمام أحمد ابن حنبل: أيرحل الرجل في طلب العلم؟ فاستحسن الإمام أحمد الرحلة في ذلك، ذاكرا أنّ (علقمة بن قيس النخعي) و(الأسود بن يزيد النخعي) –وهما من أهل الكوفة بالعراق– يبلغهما الحديث عن عمر بن الخطاب، فلا يقنعهما حتى يخرجا إليه –إلى المدينة المنورة– فيسمعانه منه[١]. وكثيرا ما تكون ثقة الناس بالعلماء الذين يرحلون في طلب العلم أكثر من ثقتهم بمن لم يرحل، حتى قالوا: ((من لم يرحل فلا ثقة بعلمه))[٢].

وقال يحيى بن معين: اربعة لا تؤنس منهم رشداً، وذكر منهم (ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث)[٣].

وقال أبو الفضل صالح بن أحمد بن محمد التميمي الحافظ:

((وينبغي لطالب الحديث ومن عُني به أن يبدأ بكتب حديث بلده، ومعرفة أهله منهم، وتفهمه وضبطه، حتى يعلم صحيحها وسقيمها، ويعرف أهل التحديث بها وأحوالهم معرفة تامة، إذا كان في بلده علم وعلماء قديماً وحديثاً، ثم يشتغل بعد بحديث البلدان والرحلة فيه))[٤].

---

(١) الحسرات فيمن رحل للسماع على محدّث فوجده قد مات د. محمد بن عزوز ص٨، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م، دار ابن حزم، بيروت.

(٢) الحسرات ص٨.

(٣) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص٤٧.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص٣٧٨–٣٧٩.

وهكذا كثرت رحلة طلاب الحديث خارج البلاد حتى أخذ بعضهم عن أكثر من ألف شيخ من الشيوخ. فهذا الإمام الحافظ محمد بن المسيّب النيسابوري يُنقل عنه قوله:

((ما أعلم منبراً من منابر الإسلام بقي عليّ لم أدخله لسماع الحديث))[١].

وليس المراد بقوله هذا تطوافه بمنابر الإسلام كلها، ولكنّه يريد تطوافه بالمنابر المهمة في رواية الحديث بالإسناد. وقد رحل أحمد بن موسى الجواليقي المتوفى سنة(٣٠٦هـ) إلى البصرة ثماني عشرة مرة من أجل أن يسمع ما يرويه علماؤها من السنن التي تفرّد بها (أيوب بن كيسان السختياني) المتوفى سنة (١٣١هـ).

وقال عبد الله بن المبارك:

((حملت العلم عن أربعة آلاف شيخ، فرويت عن ألف شيخ))[٢].

وقال محمد بن إسماعيل البخاري:

((كتبت عن ألف وثمانين رجلاً)).

وقال:

((دخلت بلخ، فسألوني أن أُملي عليهم لكل من كتبت عنه حديثا؛ فأمليت ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم))[٣].

وكتب الحافظ أبو العباس الوليد بن بكر بن مخلّد الأندلسي السرقسطي عن أكثر من ألف شيخ[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٤٧/٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١٩/٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠٦/٨.

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٤٤/١٠.

أمّا ابن مندة محمد بن إسحق، فقد سمع من ألف وسبعمائة شيخ، وقال الذهبي فيه:

((ولم أعلم أحدا كان أوسع رحلة منه، ولا أكثر حديثاً منه، مع الحفظ والثقة))[١].

أمّا أبو عبد الله الحاكم، فقد أخذ عن نحو ألفي شيخ[٢].

وزاد عدد شيوخ أبي يعقوب إسحق بن إبراهيم السرخسي القرّاب على ألف ومائتي نفس))[٣].

وقال محمد بن حبان:

((لعلنا قد كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ))[٤].

وبلغت مشيخة السمعاني سبعة آلاف شيخ[٥].

إنّ هذه الجهود التي بذلها رواة الحديث بالإسناد، هي التي جعلت ابن حبان يقول:

((فرسان هذا العلم: الذين حفظوا على المسلمين الدين، وهدوهم إلى الصراط المستقيم، الذين آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الديار والأوطان في طلب السنن في الأمصار، وجمعها بالوجل والأسفار، والدوران في جميع الأقطار، حتى إنّ أحدهم ليرحل في الحديث الواحد الفراسخ البعيدة، وفي الكلمة الواحدة الأيام

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٢٨/١٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٩٤/١٠، والعبر في خبر من غبر ٢١١/٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٦٠٤/١٠.

(٤) سير أعلام النبلاء ٥٢/١٠.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢٥٦/١٢.

الكثيرة، لئلا يُدخلَ مضلّ في السنن شيئا يضل به، وإن فعل فهم الذابّون عن رسول اللهﷺ، والقائمون بنصرة الدين ضدّ ذلك الكذاب))[١].

الدقة في حفظ نص الحديث

تشدد رواة الحديث في المحافظة على رواية الحديث بنصّه وبفصّه، فلم يتساهلوا بوضع حرف مكان حرف آخر -ولو بحرف الواو أو الفاء- فيروي الراوي الحديث كما هو من غير زيادة ولا نقصان. ولقد كان النبيﷺ حريصاً على أن يتقيّد الصحابي باللفظ نفسه الذي يتلفظ هو به. مثال ذلك: الدعاء الذي علّمه النبي للبراء بن عازب إذا أخذ مضجعه في النوم. فلمّا أعاد البراء قراءة الحديث، جعل كلمة (وبرسولك) مكان (وبنبيك)؛ فنبهه النبيﷺ أن يقول: (وبنبيك)[٢].

واقتدى الصحابة بالنبيﷺ في دقة حفظ الحديث، فلمّا سمع عبد الله بن عمر رجلاً يقرأ حديث أركان الإسلام الخمسة، فقدّم وآخر فيها، مخالفا بذلك الرواية التي

(١) كتاب المجروحين لابن حبان ٢٧/١، نقلا عن التواصل بين المذاهب الاسلامية للدكتور فاروق حمادة ص١٣٠.

(٢) عن البراء بن عازبﷺ قال: قال النبيﷺ:

((إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن متّ من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهنّ آخر ما تتكلم به)) قال البراء ابن عازب: فرددتها على النبيﷺ، فلمّا بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت (ورسولك) قال: ((لا، ونبيّك الذي أرسلت)) رواه البخاري في كتاب الوضوء (باب: فضل من بات على الوضوء) برقم ٢٤٧، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء (باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع).

سمعها ابن عمر من النبيﷺ، فقال له ابن عمر: ((اجعل صيام رمضان آخرهن كما سمعت من فيّ رسول اللهﷺ))[1].

وظل الأمر بالتقيّد بلفظ النبيﷺ سارياً في عصر التابعين ومن جاء بعدهم وإن تساهل بعضهم بالحروف أو المعاني. ونجد (سليمان بن مهران) المعروف بالأعمش المتوفى سنة ١٤٨هـ يقف موقف إعجاب أمام الدقة في حفظ نص أحاديث النبيﷺ فيقول:

((كان هذا العلم عند أقوام كان أحدهم لأن يخرَّ من السماء أحب إليه من أن يزيد فيه واوا أو ألفا أو دالا...))[2].

لذلك نجد من رواة الحديث من كان يتحرّج حتى من تغيير اللحن، ويبقي الكلام الذي سمعه من الراوي كما هو؛ فيبقي كلمة (لغيت) بدل (لغوت)[3]، و(عوثاء السفر) بدلا من (وعثاء السفر)[4]، وقد قالوا: بأنّ ابن سيرين ((كان يلحن كما يلحن الراوي))[5]. كل ذلك من أجل الحفاظ على نص الحديث الذي بلغهم بإسناده.

---

(١) الكفاية ص١٧٦.

(٢) الكفاية ص١٧٨.

(٣) الكفاية ص ١٨٣.

(٤) الكفاية ص١٨٠.

(٥) الكفاية ص١٨٦.

إنفاق المال في طلب الحديث بإسناده

سرى حب طلب الحديث بإسناده في دماء طلبة العلم، وهان عليهم كل شيء من أجله. وإذا كان الناس في العصر الحديث يتخذون ما برعوا به من علوم وسيلة لكسب المال وزيادة الثروة، فإنّ رواة الحديث كانوا على عكس ذلك؛ فأنفقوا ما كان معهم من مال ورثوه عن آبائهم، أو حصلوا عليه بجدهم ونصبهم في طلب الحديث. فهذا الإمام (يحيى بن معين) توفي والده، وترك له ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم (مليونا وخمسين ألفاً) فأنفقه كله على الحديث، حتى لم يبق له نعل يلبسه[١].

وهذا علي بن عاصم بن صهيب يقول:

((دفع إلي أبي مائة ألف درهم وقال: إذهب فلا أرى لك وجها إلا بمائة ألف حديث))[٢].

أمّا هشام بن عبيد الله الرازي فكان يقول:

((لقيت ألفاً وسبعمائة شيخ، أصغرهم عبد الرزاق، وخرج منّي في طلب العلم سبعمائة ألف درهم))[٣].

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٧٨/١٤، دار الكتب العلمية، بيروت. وسير أعلام النبلاء ٣٩٤/٧.

(٢) تاريخ بغداد ٤٤٧/١١. وسير أعلام النبلاء ٤٣٦/٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٢٠/٧. وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٤٤/١١، دائرة المعارف الإسلامية حيدر آباد الدكن.

أخذ الأجرة على التحديث

وإذا كان أكثر الذين قاموا بالرحلة في طلب الحديث لا يبتغون من وراء ذلك مالاً، حتى شاع قولهم: ((علّم مجاناً كما عُلّمت مجانا))[1]، إلاّ أنّه وجد في الرحّالين من صار يأخذ الأجرة على تحديثه، وذلك كيعقوب ابن إبراهيم بن سعد[2]. ولم يرتض هذا كبار المحدثين: فقد استنكروه، وحذّروا طلاب الحديث من السماع منهم، فكان شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ، يدعو طلاب الحديث إلى الأخذ عن العلماء الأغنياء، وكان يقول: ((لا تكتبوا عن الفقراء شيئا))[3]. واستمر علماء الحديث في إلقاء أحاديثهم من دون مردود مالي، فكان منهم من يتنزّه عن أخذ الهدية ويعدُّها رشوة من طالب الحديث، وكان منهم من لا يلقي أحاديثه على طالب الحديث إلا إذا عاهده ألا يُقدّم له أي شيء كان، ومن هؤلاء حمّاد ابن سلمة، فقد أهدى له واحد من طلابه هدية جاء بها من (الصين)، فلم يقبل حمّاد هديته وقال له: ((اختر: إن شئت قبلتها ولم أُحدثك أبداً، وإن شئت حدّثتك ولم أقبل الهدية؛ فقال: لا تقبل الهدية وحدّثني؛ فردّ الهدية وحدثه))[4].

إنّ (حماد بن سلمة) يعلم أنّ التهادي بين المسلمين سنة دعا إليها النبيﷺ، لكنّه أراد أن تكون أحاديثه التي يلقيها لا تشوبها أية شائبة كانت؛ لتكون خالصة لله وحده. وربما خاف أن تكون الهدية سببا لتحديثه لطالب الهدية بأحاديث أكثر من زملائه. وقد وقع للإمام الأوزاعي من قبل مثلما وقع لحمّاد؛ ذلك أنّ أصحاب الحديث جاءوا له بهدية، فلمّا قدموها له خاطبهم قائلا:

---

(١) الكفاية ص١٥٣-١٥٤.

(٢) ينظر خبره في سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي ٤٩/١، الطبعة الأولى ١٣٤٨-١٩٣٠، المطبعة المصرية بالأزهر. والكفاية ص١٥٦.

(٣) الكفاية ص١٥٦.

(٤) الكفاية ص١٥٣.

((أنتم بالخيار إن شئتم قبلت هديتكم ولم أحدثكم، وإن شئتم حدثتكم ورددت هديتكم))[١].

وهذا هو موقف الإمام أحمد بن حنبل في أخذ الأجرة على التحديث، فقد سُئل: أيُكتب عمّن يبيع الحديث؟ فأجاب: لا ولا كرامة[٢].

ولابد لنا أن نشير هنا إلى أنّ هناك قلة من حفاظ الحديث الثقات ممن عُرفوا بالأمانة والصدق، ألجأهم الفقر المدقع والحاجة الكاوية إلى أخذ الأجرة على التحديث؛ ذلك لأنهم كانوا متفرغين لهذه الصنعة وحدها، وقد اغتفر لهم نقاد الحديث أخذهم الأجرة على التحديث، ومن هؤلاء: (أبو نعيم الفضل بن دكين) –وهو من شيوخ الإمام البخاري– فكان يقول:

((يلومونني على أخذ الأجرة، وفي بيتي ثلاثة عشر، وما في بيتي رغيف))[٣].

وهكذا الأمر في (علي بن عبد العزيز المكي) وهو من شيوخ النسائي.

لقد كان الذين يتقاضون الأجر على التحديث قلة قليلة، وبقيت الكثرة الكاثرة التي تحدث احتسابا لوجه الله تعالى.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص١٩٣.

(٢) الكفاية ص١٥٤.

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٧٥/٨.

قوة حافظة الحديث بالإسناد

لمّا كان الإسلام آخر الأديان، وكانت شريعته خاتمة الشرائع لا تُنسخ ولا تُبدّل، فقد هيّأ الله–سبحانه– له رجالاً يملكون حافظة لا يملكها غيرهم من سائر الأمم، وذلك لحفظ سنة النبيﷺ، ولم تكن كتابة الحديث لدى قسم من العلماء سوى وسيلة من وسائل حفظ الحديث، فإذا أتقنوا حفظه قاموا بمحو ما كتبوه؛ لئلا يتكلوا على الكتابة، ومن هؤلاء: (سفيان الثوري) و(عاصم بن حمزة) و(خالد الحذّاء). ومما شاع على ألسنة الناس وصاروا يرددونه:

استودع العلم قرطاسا فضيّعه وبئس مستودع العلم القراطيس[1].

ونقرأ عن هؤلاء الحفظة؛ فتصيبنا الدهشة، ويأخذنا العجب من قوة حافظتهم أولاً، ومن صبرهم وجلدهم في أسفارهم من أجل الحفاظ على سنة النبيﷺ بعد ذلك. فهذا قتادة بن دعامة لما قدم على سعيد بن المسيب، فصار يسأله كل يوم عن اشياء كثيرة وكان ابن المسيب يجيبه، فلما أكثر عليه سأله سعيد: (اكل ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم، سألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وقال فيه الحسن كذا، حتى رد عليه حديثاً؛ فقال سعيد: ما كنت اظن ان الله خلق مثلك؛ فكان سعيد يقول: ما اتاني عراقي أحفظ من قتادة)[2].

وهذا يزيد بن هرون يقول:

((أحفظ خمسة وعشرين ألف حديث بإسناده ولا فخر، وأحفظ للشاميين عشرين ألف حديث))[3].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٦٩/١.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٣٥٢/٨–٣٥٣، وطبقات الحفاظ ص٥٤.

(٣) تدريب الراوي ص٢٣.

وهذا أبو داؤد سليمان بن داؤد الطيالسي صاحب المسند، يسرد من حفظه ثلاثين ألف حديث[1].

وهذا أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث أملى من حفظه ثلاثين ألف حديث[2].

وهذا أبو عبد الله الخُتُلّي حدّث خمسين ألف حديث من حفظه[3].

وهذا علي بن خشرم يقول: ((كان إسحق بن راهويه يملي سبعين ألف حديث حفظا))[4].

وعن ابن شبرمة عن الشعبي قال:

((ما كتبت سوداء في بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدّثني رجل بحديث قط إلا حفظته. فحدّثت بهذا الحديث إسحق بن راهويه فقال: تعجب من هذا؟ قلت: نعم. قال: ما كنت لأسمع شيئا إلا حفظته، وكأنّي أنظر إلى سبعين ألف حديث أو قال: أكثر من سبعين ألف حديث في كتبي))[5].

وهذا الإمام محمد بن إسماعيل البخاري كان يحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح[6]، وقد خرّج كتابه (الجامع الصحيح) من ستمائة ألف حديث[7]. وقصة اختبار علماء بغداد لهذا الإمام الجليل سارت بذكره الركبان-

---

(١) تاريخ بغداد ٢٦/٩-٢٧. وسير أعلام النبلاء ٥٠٣/٦.

(٢) تاريخ بغداد ٤٦٦/٩. وسير أعلام النبلاء ٤٥٨/٨.

(٣) تاريخ بغداد ٢٩٠/١٠-٢٩١. وسير أعلام النبلاء ٤٣٦/١٥.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص٣٩٧، وتدريب الراوي ص٢٢.

(٥) تدريب الراوي ص٢٢.

(٦) تدريب الراوي ص٢١.

(٧) تاريخ بغداد ١٤/٢. وسير أعلام النبلاء ٢٠٩/٨. وهدي الساري لابن حجر العسقلاني ص٦٨٣، دار السلام في الرياض، ودار الفيحاء في دمشق.

كما يقال- فقد قال أبو أحمد بن عدي الحافظ: سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون:

((إنّ محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه، فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس: لكل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا عليه الموعد للمجلس؛ فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين. فلمّا اطمأنّ المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول: لا أعرفه، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: فهم الرجل، ومن لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ. ثم انتدب رجل من العشرة- أيضا- فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال: لا أعرفه، فسأله عن آخر؛ فقال: لا أعرفه. فلم يزل يلقي عليه واحدا واحدا حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه. ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة والبخاري لا يزيدهم على: لا أعرفه. فلمّا علم أنّهم فرغوا التفت إلى الأوّل فقال: أمّا حديثك الأوّل فقلت كذا وصوابه كذا، وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة: فردّ كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك؛ فأقرّ الناس له بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل))[(١)].

ويعلّق ابن حجر على هذه الحادثة بقوله:

---

(١) هدي الساري مقدمة فتح الباري لا بن حجر العسقلاني ص٦٧٩.

((هنا يخضع للبخاري، فما العجب من ردّه الخطأ إلى الصواب؛ فإنّه كان حافظا؛ بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرّة واحدة))[١].

أمّا الإمام أحمد، فقد انتقى مسنده من سبعمائة ألف وخمسين ألف حديث[٢]

قد يقول قائل: إنّ الأحاديث المدونة لا تبلغ عشر معشار ما نقرؤه عن هؤلاء الجهابذة من الحفاظ، فأين تلك الأحاديث الأخرى؟.

والجواب: إنّ الأحاديث التي حفظها العلماء ليست من الأحاديث المتغايرة وحدها، فإنّ الحديث الواحد قد يأتي بعشرة من الأسانيد، فتُحسب عشرة أحاديث، ويأخذ المحدّثُ أصحّ تلك الأسانيد، ويدع ما سواها، وقد يكون ما يتركه صحيحا، وقد يكون ما ذكره غير صحيح عند غيره. ولم تقتصر تلك الأسانيد على الأحاديث المرفوعة إلى النبيﷺ؛ بل تشمل -أيضا- أقوال الصحابة والتابعين.

لا يؤخذ الحديث بالإسناد إلا من أهله

أدرك طلاب الحديث بالإسناد أنّ هذا العلم لا يؤخذ إلا من أهله الضابطين له المتقنين لما يروونه فليس كل من روى حديثا عن رسول اللهﷺ تقبل روايته، حتى الذين عُرفوا بالزهد والورع والتقوى لا تؤخذ روايتهم إذا لم يكونوا من أهل العلم بصنعة الحديث؛ لذلك روى أبو الزناد عبد الله بن ذكوان السمان المتوفى سنة ١٣٠هـ عن أبيه قال:

((أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله))[٣].

---

(١) هدي الساري ص٦٧٩-٦٨٠.

(٢) تدريب الراوي ص٢١.

(٣) مقدمة صحيح مسلم ١٥/١.

وقال عبد الله بن المبارك: قلت لسفيان الثوري: إنّ عبّاد بن كبير من تعرف حاله، وإذا حدّث جاء بأمر عظيم، فترى أن أقول للناس: لا تأخذوا عنه؟ قال سفيان: بلى، قال عبد الله فكنت إذا كنت في مجلس ذُكر فيه عباد أثنيت عليه في دينه وأقول: لا تأخذوا عنه(١).

لقد كان عباد من الناس المعروفين بالعبادة والصلاح، لكنّ علماء الحديث أجمعوا على تضعيفه، وحذّروا من الرواية عنه، وقد قال عنه أبو زرعة الرازي: كان شيخا صالحا، وكان لا يضبط الحديث.

وقال الإمام مالك: ((ربما جلس إلينا الشيخ فيتحدّث كل نهاره ما نأخذ عنه حديثا واحدا وما بنا أنّا نتهمه، ولكنّه ليس من أهل الحديث))(٢).

وقال:

((إنّ هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين ممن يحدّث قال فلان: قال رسول اللهﷺ عند هذه الأساطين-وأشار إلى مسجد رسول اللهﷺ- فما أخذتُ عنهم شيئا، وإنّ أحدهم لو اؤتمن على بيت المال لكان أمينا؛ لأنّهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وقدم علينا ابن شهاب (الزهري)، فكنا نزدحم على بابه))(٣).

وقال أيوب السختياني: ((إنّ بالبصرة رجلا من أزهدهم وأكثرهم صلاة، عييا، لو شهد عندي شهادة ما أجزت شهادته[يريد فكيف أقبل حديثه]))(٤).

---

(١) مقدمة صحيح مسلم ١٧/١.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد تأليف أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر،٦٨/١ تحقيق: مصطفى أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، دار النشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ١٣٨٧.

(٣) التمهيد ٦٧/١.

(٤) التمهيد ٢٩/١.

الحسرات فيمن رحل للسماع على محدث فوجده قد مات

مما يتصل بالرحلة لطلب الحديث: رحلات عدد غير قليل من طلاب الحديث للسماع من المحدثين الكبار، لكنّهم لم يتمكنوا من نيل مآربهم، فأصابهم الحزن والأسف على فوات سماعهم ممن رحلوا للأخذ عنهم؛ إذ وافق وصولهم وفاة أولئك الشيوخ. وقد عقد الخطيب البغدادي في كتابه (الرحلة في طلب الحديث) مبحثا ممتعا عنوانه: (ذكر من رحل إلى شيخ يبتغي علو إسناده، فمات قبل ظفر الطالب منه ببلوغ مراده)، فذكر ١٤ محدثا ممن أصابهم ذلك. وأخذ هذا العدد وأضاف إليه ٢٥ من المحدثين الآخرين الدكتور محمد بن عزوز، فصار العدد ٣٩، وذلك في كتابه الممتع (الحسرات فيمن رحل على محدّث فوجده قد مات) وقد أفدت منه في كتابة هذا المبحث. من هؤلاء: عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ، فقد رحل إلى البصرة ليأخذ عن الحسن البصري فوجده قد مات.

ومنهم حمّاد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٧هـ، رحل إلى مكة فدخلها في رمضان ليأخذ عن عطاء بن أبي رباح –وكان عطاء حيا– فقال حمّاد: إذا أنا أفطرت دخلت عليه، قال فلمّا وصل إليه وجده قد مات.

ورحل علي بن عاصم المتوفى سنة ٢٠١هـ مع هشيم بن بشير بن أبي خازم إلى الكوفة؛ ليسمع من منصور بن المعتمر، فدخل هشيم صباحا ودخل عليّ العشي، فذهب هشيم وسمع من منصور أربعين حديثا، ودخل علي بن عاصم الحمام، ثمّ أصبح فأتى دار منصور، فوجده قد مات والناس ينتظرون تشييعه؛ فقعد يبكي.

ورحل علي بن الحسين بن واقد المتوفى سنة ٢١١هـ إلى الكوفة للسماع من إسرائيل بن يونس بن أبي إسحق، فاستقبله الناس، وقالوا: مات إسرائيل.!

ورحل عبد الله بن داؤد الخريبي إلى البصرة ليأخذ الحديث عن عبد الله بن عون بن أرطبان فلمّا وصل إلى قناطر بني دارا –وفي رواية عند الذهبي سردارا– تلقاه نعي ابن عون؛ فدخله من الحزن والأسف على فوات السماع منه ما دخله.

ورحل مكي بن إبراهيم إلى مصر للسماع من موسى بن علي بن رباح، فوجده قد مات قبل دخوله بثلاثة أيام.

ورحل محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح القرطبي المتوفى سنة ٢١٨هـ إلى الإمام مالك، فوجده قد مات...!

وما كان طلاب الحديث يحزنون على شيء كحزنهم على المحدثين الكبار، الذين يشدون إليهم الرحال، ويقطعون المسافات الطويلة من أجل اللقاء بهم والأخذ عنهم، ويفاجؤون بموتهم.

جهود علماء الحديث ودقتهم في نقل السند

إنّ المسلمين اليوم يقرؤون أحاديث نبيهمﷺ وسيرته، لكنّ الأكثر منهم لا يعرف مدى الجهود التي بذلت حتى وصلت أحاديث النبي إلينا هكذا. لقد بذل رواة الحديث جهودا مضنية حتى تحققوا من صحة أحاديثهﷺ. لقد درسوا حياة كل من روى عنه ولو حديثا واحدا، ودرسوا حياة الراوي الثاني الذي روى عنه، والثالث والرابع وهكذا حتى يصل السند إلى النبيﷺ فقد كانوا يضعون الراوي تحت الاختبار، ويكثرون من الأسئلة عن كثير مما يتعلّق بحياته الدينية والدنيوية، حتى كان يقول أحدهم: ((كنّا إذا أردنا أن نكتب عن الرجل سألنا عنه، حتى يقال لنا: أتريدون أن تزوّجوه))[١].

---

(١) أمثال الحديث مع تقدمة في علوم الحديث د. عبد المجيد محمود ص٢٣، الطبعة الأولى، الناشر: مكتبة دار التراث، القاهرة.

لقد تشدد علماء الحديث هذا التشدد؛ لأنّ (معرفة الرجال نصف العلم) كما قال علي بن المديني. فلا غرو إذا علمنا أنّ راوي الحديث ينبغي عليه أن يسرد أسماء رواة الحديث كلّهم من حفظه، ويضيف اسمه في آخر السند؛ ليتضح لكل دارس أنّه قد سمع ما يرويه حقا، وإلا لا يحتج بحديثه ولو كان إماما له الفضل في العلم.

ومن حرصهم على الدقة في أخذ الأحاديث أنّهم كانوا يقولون: ((الكاذب في غير حديث رسول اللهﷺ ترد روايته))(١). وقالوا –أيضا–:

((السفه يسقط العدالة ويوجب رد الرواية))(٢).

إنّ دراسة أحوال هذه الكثرة الكاثرة من الرواة، والتحري عن صفاتهم وأخلاقهم وميولهم ليس بالأمر الهيّن، فقد كانوا يدرسون حياة كل راو على حدة من حيث العدالة والضبط إذ هما الركنان الأساسيان اللذان تدور عليهما صحة الحديث، لكن هذين الركنين متداخلان ودرجاتهما متفاوتة بتفاوت درجاتهم؛ لذلك قسّموا هذين الركنين إلى تسعة أنواع:

١- رواة في الدرجة العليا من العدالة، والضبط.

٢- رجال في الدرجة العليا من العدالة، والوسطى من الضبط.

٣- رجال في الدرجة العليا من العدالة، والدنيا من الضبط.

٤- رجال في الدرجة الوسطى من العدالة، والعليا من الضبط.

٥- رجال في الدرجة الوسطى من العدالة والضبط.

٦- رجال في الدرجة الوسطى من العدالة، والدنيا من الضبط.

٧- رجال في الدرجة الدنيا من العدالة، والعليا من الضبط.

---

(١) الكفاية ص١١٧.

(٢) الكفاية ص١١٥.

٨- رجال في الدرجة الدنيا من العدالة، والوسطى من الضبط.

٩- رجال في الدرجة الدنيا في العدالة والضبط[١].

أمّا عن الصحابة فإن العلماء قد شمّروا عن ساعد الجد، فألفوا الكتب ودونوا المدونات الواسعة في حياتهم مثل: الطبقات الكبرى لابن سعد، والاستيعاب لابن عبد البر، ومعرفة الصحابة للبغوي، وأُسد الغابة لابن الأثير، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني وغير هذه المؤلفات، وترجمت هذه الكتب وغيرها إلى نحو عشرة آلاف صحابي.

وأمّا التابعون وتابع التابعين، فقد دُرست حياة ما يقرب من مائة ألف منهم في الأقل. وذهب العالم الألماني (شبرينجر) إلى أنّ عددهم وصل إلى خمسمائة ألف يقول (شبرينجر):

((إنّ الدنيا لم تر، ولن ترى أمّة مثل المسلمين، فقد درس بفضل علم الرجال الذي أوجدوه حياة نصف مليون رجل))[٢].

كل هذه الجهود من أجل الوقوف على معرفة عدالة الرواة وضبطهم للوقوف على الحكم على الحديث من حيث الصحة أو الحسن أو الضعف.

---

(١) المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل للدكتور فاروق حمادة ص٢٠٥، الطبعة الأولى ١٤٢٩-٢٠٠٨، دار السلام، القاهرة.

(٢) الإسناد من الدين ص٣٢ نقلا عن مقدمة كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) لابن حجر العسقلاني التي كتبها (شبرينجر) للكتاب طبع في كلكته في الهند.

أهمية الإسناد

يروى حديث النبيﷺ عن طريق سلسلة الرواة، ابتداءا من الراوي الأوّل له، وانتهاءا بالنبيﷺ. وقد كانت دراسة كل راو من رواة هذه السلسلة تعد من أهم العوامل في معرفة نقد الحديث، وذلك بمعرفة رواة الخلف عن السلف.

وكل من يطلع على الجهود التي قام بها رواة أحاديث النبيﷺ ونُقّاد الأسانيد، يأخذه العجب العجاب من ذلك العمل العظيم الذي لا نظير له في تاريخ البشرية: فقد صبروا وصابروا، وحرموا أنفسهم من الراحة، وبذلوا أقصى ما كان عندهم من طاقة بشرية؛ خدمة لأحاديث النبيﷺ، وصيانة لها عمّا يعكّر صفوها؛ فقعّدوا القواعد، ودرسوا حياة كل راو من رواة الحديث فأعطوه ما يستحقه من الأوصاف حفظا وعدالة: فنصّوا على من يُقبل حديثه ممن لا يُقبل.

وإذا كان علماء الحديث قد اهتموا هذا الاهتمام البالغ بأمر سند الحديث، حتى صاروا لا يقبلون الحديث إذا لم يأت موصولا بسنده الصحيح أو الحسن؛ فلأنّ الإسناد يجعل الكلام معتمدا إذا صح نقله. ويفسّر الإمام الشاطبي سبب ذلك الاهتمام فيقول:

((...ذلك لما تضمنه من معرفة الرجال الذين يُحدّث عنهم، حتى لا يسند عن مجهول ولا مجروح ولا متهم، إلا عمّن تحصل الثقة بروايتهم؛ لأنّ روح المسألة: أن يغلب على الظن من غير ريبة، أنّ ذلك الحديث قد قاله النبيﷺ؛ لنعتمد عليه في الشريعة، ونسند إليه الأحكام...))[١].

ويشيد أبو عبد الله الحاكم النيسابوري بجهود المحدثين ومواظبتهم في طلب الإسناد وحفظه، ذاكرا أنّ منار الإسلام كان قد انهار لولا تلك الجهود التي قاموا بها فيقول:

---

(١) الاعتصام للإمام الشاطبي ٢٢٥/١، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة.

((فلولا الإسناد، وطلب هذه الطائفة له، وكثرة مواظبتهم على حفظه لدرس منار الإسلام، ولتمكن أهل الإلحاد والبدع منه بوضع الأحاديث، وقلب الأسانيد؛ فإنّ الأخبار إذا تعرّت عن وجود الأسانيد فيها كانت بُترا))[1].

ولم يقف المحدثون عند هذه المعاني في طلب الإسناد، بل عابوا على من يأخذ علمه من الكتب من غير أن يسمع من العلماء ويسند عنهم؛ إذ إنّ ذلك يؤدي إلى التصحيف، وقد قالوا: ((لا تأخذوا القرآن من المصحفيين، ولا العلم من الصحفيين))، وقال بعضهم في ذلك:

ومن بطون كراريس روايتهم   لو ناظروا باقلا يوما لما غلبوا

والعلم إن فاته إسناد مسنده   كالبيت ليس له سقف ولا طنب[2].

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر:

وأنفع كل نوع منه عندي   وأحسنه: الفوائد والأمالي

وإنّك لن ترى للعلم شيئا   يحققه كأفواه الرجال

فكن-يا صاح- ذا حرص عليه   وخذه عن الرجال بلا ملال

ولا تأخذه من صُحف فترُمى   من التصحيف بالداء العضال

إنّ الاهتمام بالإسناد كان قد بدأ بعد ظهور الخلافات السياسية بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالبؓ ومعاوية بن أبي سفيان الذي كان أميرا على الشام، ففي هذه المدة الزمنية وجد الوضاعون مجالا لوضع أحاديث تدعم قسما من الفرق الدينية والسياسية؛ لذلك قرر العلماء أنّ الحد الفاصل بين نقاء الشريعة وظاهرة وضع الأحاديث هي سنة ٤١ من الهجرة فما بعدها؛ فصار العلماء يبذلون جهودهم ليتثبتوا من مصادر الرواية، وذلك بالسؤال عن الرجال الذين نقلوا تلك الروايات. وقد

---

(١) معرفة علوم الحديث ص٦.

(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص١٦٣.

أماط اللثام عن هذه الحقيقة عالم من أفاضل علماء التابعين هو محمد بن سيرين المتوفى سنة ١١٠هـ فقال:

((لم يكونوا يسألون عن الإسناد. فلمّا وقعت الفتنة قالوا: سمّوا لنا رجالكم: فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم))[١].

هكذا بدأت حركة الاهتمام بالإسناد، ثمّ تمكنت لدى العلماء بعد ذلك، حتى قال عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ:

((الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء))[٢].

وقال:

((بيننا وبين القوم القوائم يعني الإسناد))[٣].

وهذا معناه: أنّ الحديث إذا جاء بإسناد قُبل وإلا تُرك. وعدّ سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١هـ الإسناد سلاحا كسلاح المقاتل في الحرب، فإن لم يكن مع المقاتل السلاح لا يستطيع القتال فقال:

((الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يُقاتل))[٤].

وقال يزيد بن زريع:

---

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ٨٤/١.

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ٨٧/١.

(٣) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ٨٨/١. جعل الحديث هنا كالحيوان الذي لا يقوم بغير القوائم، وكذلك الحديث هنا لا يقوم بغير الإسناد.

(٤) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص٤٢ بتحقيق: د. محمد سعيد خطيب أوغلى، دار إحياء السنة.

((لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد))[١].

وقال شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ:

((كل حديث ليس فيه أنا وثنا فهو خل وبقل))[٢].

وقال هشام بن عروة:

((إذا حدثك رجل بحديث فقل: عمّن هذا؟))[٣].

أمّا الإمام الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ، فكان إذا حدّث أتى بالإسناد وقال:

((لا يصلح أن يرقى السطح إلا بدرجه))[٤].

وكان هذا الإمام يعد إغفال الإسناد جرأة على الله تعالى. فلمّا روى (ابن أبي فروة) عددا من أحاديث النبيﷺ من غير أن يذكر سندها، أنكر عليه الإمام الزهري قائلا له:

((قاتلك الله يا ابن أبي فروة! ما أجرأك على الله؟! لا تسند حديثك! تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمّة))[٥].

أمّا الإمام الشافعي، فكان يحرص -أيضا- على الاتيان بسند الحديث، وقد مثّل من يطلب الحديث بلا إسناد بمثال حسن فقال:

---

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير ١٠٩/١ بتحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مطبعة الملاح ١٣٨٩-١٩٦٩.

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ١٠٩/١ ومعنى خل وبقل: أي لا قيمة له.

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣٤/١، طبع في الهند سنة ١٣٧١-١٩٥٢

(٤) الجرح والتعديل ٣٦/١.

(٥) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ص٦. والخطام والزمام يُقاد بهما البعير. ((ووجه الشبه بين الأسانيد والخطم والأزمة: الضبط والتعرّف، كما يضبط سير الناقة بحركة زمامها، وتتعرّف من حركته وجهة سيرها الصحيح المطلوب، كذلك تتعرف الأحاديث، وتضبط برجال أسانيدها، وبها يتميّز صحيحها من سقيمها)) الإسناد من الدين ص١٩.

((مثل الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى وهو لا يدري))[1].

وقال الحافظ بقية بن الوليد الحمصي:

((ذاكرت حمّاد بن زيد بأحاديث فقال: [ما أجودها لو كان لها أجنحة]))[2].

فقد جوّد الأحاديث لو كان لها أسانيد، أما وإنّها ليست لها أسانيد فهي ساقطة لا ترتفع عن الأرض.

وهكذا انتشر وذاع التزام الإسناد في المجتمع الإسلامي. ولم يقتصر التزام الإسناد وطلبه على العلماء وطلاب العلم وحدهم، بل صار يطلبه حتى العامة من الناس.

وكان لالتزام الإسناد أثر طيب في نفوس الناس والمُسندين معا، ذلك أنّ المحدّث الذي يقوم بإسناد حديثه، يرفع بذلك العهدة عن نفسه، ويطمئن إلى صحة ما ينقل عندما يصير السند المتصل قد انتهى إلى رسول الله ﷺ فإنّ رواة ذلك الحديث –كلهم– يشتركون في تحمّل تبعة الحديث ونقله.

ولقد حرص قسم من المحدّثين –فوق ذلك– على الاهتمام بالإسناد؛ لأنّ الحديث يتضمّن كثيرا من السنة التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، والتحقيق والتدقيق يبعث –ولا شك– على إدخال الطمأنينة في نفوس السامعين؛ إذ يبعث في قلوبهم الثقة في حديث المحدث الذي يصل بين عصره وعصر النبي ﷺ بسلسلة متصلة من الرواة العدول، وكل واحد منهم يشهد أنّه سمعه ممن قبله إلى أن يصل الإسناد إلى النبي ﷺ.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٤٣٣/١ طبع سنة ١٣٩١–١٩٧٢، دار المعرفة، بيروت.

(٢) الإسناد من الدين ص٢٠.

لذلك نجد النشوة تأخذ المحدثين وهم يذكرون سند الحديث، حتى قال قائلهم:

يا لذة العيش لمّا قلت حدثنا عوف وبشر عن الشعبي والحسن

وقال الحطيم يمتدح سفيان بن عيينة:

يضمُّ عمرا إلى الزهري يسنده وبعد عمرو إلى الزهري صفوانا

وعبدة وعبيد الله ضمهما وابن السبيعي -أيضا- وابن جدعانا

فعنهم عن رسول الله يوسعنا علما وحكما وتأويلا وتبيانا

وقال الأصمعي يرثي سفيان بن عيينة:

من للحديث عن الزهري يسنده وللأحاديث عن عمرو بن دينار

ما قام من بعده من قال حدثنا الـ.......زهري في أهل بدو أو بإحضار

ولقد أثّر منهج المحدثين في علوم كثيرة، فصاروا ينهجون نهجهم، ويسلكون مسلكهم في ذكر الإسناد. وكل من يلقي نظرة في كتب التفسير والتاريخ والأدب يرى هذه الظاهرة واضحة في هذه العلوم وغيرها. يقول الدكتور أكرم ضياء العمري:

((لقد أثّر منهج المحدثين في التزام الإسناد في نطاق الحديث على المؤرخين وأهل الأدب، حيث أصبحت الأسانيد تتقدم الروايات التاريخية والأدبية. وهكذا امتد استعمال الأسانيد إلى كتب السيرة الأولى: كسيرة ابن إسحق، ومغازي الواقدي، والطبقات الكبرى لابن سعد، وكتب التاريخ مثل: تاريخ خليفة بن خياط، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، وكتب الأدب: ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني))(١).

وتكلّم في هذه المعاني الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة -رحمه الله- فقال:

---

(١) بحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور أكرم ضياء العمري ص٥٧، الطبعة الخامسة ١٤١٥-١٩٩٤، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

((..فقد جعل علماؤنا المتقدمون–رحمهم الله تعالى وأكرم نزلهم– (الإسناد) أو (السند) من (سنن العلم)، أيّا كان ذلك العلم: دينا كعلم التفسير والحديث والفقه والأصول.. أو آلة لعلم الدين كعلم الأدب والتاريخ واللغة والنحو والشعر ونحوها، أو أسمارا وحكما ونوادر وطرائف))[١].

ولابد لنا أن نشير هنا إلى أنّ الذين كتبوا في التاريخ والسير والأدب واللغة، لم يبلغوا في التدقيق والتحرّي في الروايات التي ذكروها ما بلغه التدقيق في رواية الأحاديث: فقد رد المحدثون رواية (أبي مخنف) لوط بن يحيى بن سعيد، حتى قال فيه أبو حاتم (متروك الحديث)، مع أنّ ابن جرير الطبري ينقل عنه كثيرا في تاريخه.

ونجد المصنفين في التفسير والتاريخ، يتحرّون الدقة في روايات التفسير أكثر من تحرّيهم في روايات التاريخ. وهذا واضح فيما صنعه محمد بن جرير الطبري في تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): فقد تحرّى في أسانيد تفسيره هذا أكثر بكثير من تحرّيه في تاريخه (تاريخ الأمم والملوك) المعروف بتاريخ الطبري. لقد فعل المصنفون هذا؛ لأنّ التصنيف في الحديث عدّوه دينا يتقرّبون به إلى الله؛ لذلك صاروا يتحرّون في رواته أكثر من تحرّيهم في رواة الحوادث التاريخية، ورواة الأدب واللغة.

ولم يقف أمر الاهتمام بالإسناد عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى الحكمة يقولها من يقولها، فتنقل بسندها فلان عن فلان كما يُنقل سند الحديث. ولقد قال الخليفة العباسي المأمون يوما لعمّه إبراهيم بن مهدي ((لا شيء أطيب من النظر في عقول الرجال))[٢].

فساقها المؤلفون بإسنادها على طريقة إسناد الحديث.

---

(١) الإسناد من الدين ص٣٥.

(٢) كتاب الأذكياء، تأليف: ابي الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي، ص٦، دار النشر: مكتبة الغزالي.

وهكذا أثّر منهج السلف في نقل الأسانيد حتى في الكلمات اللطيفات التي لا يترتب عليها حلّ ولا حرمة.

السند بين الشرط والزينة

وهناك من العلماء من قسم السند إلى قسمين:

الأوّل: ضروري وشرط في صحته.

الثاني: كمال وزينة فيه.

ومن العلماء الذين قاموا بهذا التقسيم الخطيب البغدادي، فقد قال:

((فأمّا الأحاديث المسندات إلى النبيﷺ فهي أصل الشريعة، ومنها تستفاد الأحكام، وما اتصل منها سنده، وثبتت عدالة رجاله، فلا خلاف بين العلماء أنّ قبوله واجب والعمل به لازم، والراد له آثم...وأمّا أخبار الصالحين، وحكايات الزهاد والمتعبدين، ومواعظ البلغاء، وحكم الأدباء، فالأسانيد زينة لها، وليست شرطا في تأديتها))[١].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص٣٥٤و ٣٧١.

علم الجرح والتعديل

علم الجرح والتعديل: هو العلم الذي يبحث في أحوال الرواة في ضوء الصفات المتوافرة فيهم: من العدالة والضبط وغيرهما؛ لقبول رواياتهم أو ردها بألفاظ مخصوصة، وفي مراتب معلومة..وقد نشأ هذا العلم حين ظهر طلب الإسناد ممن يروي حديثا: فكان الخطوة الأولى التي أدت إلى نشوئه لمعرفة قبول الرواية أو ردها.

ويُعد هذا العلم من أجلّ علوم الحديث؛ إذ به يتميز الحديث المقبول من المردود، والصحيح من الضعيف أو الموضوع: فهو الميزان الذي يوزن به الرجال لمعرفة صحة رواياتهم من عدمها: فكانوا يحكمون على الحديث بالضعف إذا عرضت شبهة في سيرة واحد من رواة الحديث، ويحكمون على الرواية بالوضع إذا عرف عن الراوي شيء من الكذب –ولو لم يعرف عنه الكذب في رواية الحديث– !.

وهكذا اهتم العلماء به كل اهتمام، وعدوا معرفته واجبة وجوب كفاية، ولم يعدوا الطعن بقسم من الرواة غيبة محرّمة، بل عدّوها من الواجبات؛ لتظهر السنة النبوية نقية صافية من افتراء المفترين، ولصيانتها –أيضا– من عوامل الغفلة وعدم الاتقان.

ولقد كانت مواقف العلماء تتسم بالدعوة إلى الجرأة في الحكم على حفظ رجال الحديث فقال يحيى بن سعيد:

((سألت شعبة، وسفيان، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة عن الرجل يُتهم في الحديث أو لا يحفظه؟ قالوا: بيّن أمره للناس))[(١)].

(١) الكفاية ص٤٢.

لذلك كان يحيى بن سعيد لا يتردد في التجريح إذا قامت عنده الأدلة. فلمّا سأله أبو بكر بن خلاد: ((أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله تعالى؟)) كان جوابه:

((لأن يكون هؤلاء خصمائي أحب إليّ من أن يكون خصمي رسول اللهﷺ يقول: لم حدثت عنّي حديثا ترى أنّه كذب))[١].

لقد ساهمت عدة أجيال من الرواة في هذه العملية الشاقة المضنية التي حرمت أصحابها من الراحة ولذات الحياة، وأدى ذلك التعب والنصب إلى نضوج ذلك العلم. ومن أئمة الجرح والتعديل الذين عُرفوا: شعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، وعبدالرحمن بن مهدي، ويحيى بن معين، ويحيى بن سعيد القطان، وعلي بن المديني، وأحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وأبو حاتم الرازي، وأبو زرعة الرازي، وغير هؤلاء كثير رحمهم الله رحمة واسعة ورضي الله عنهم.!

ولقد كان منهج علماء الجرح والتعديل متفرّدا بين المناهج بالدقة؛ لأنّ القائمين عليه كانوا ممن تمثّل فيهم الإنصاف في صورة من أجمل صوره: فلم تؤثر بهم روابط الصداقة والقرابة، ولم يحابوا أحدا على حساب حديث النبيﷺ-ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو ابنائهم-. فهذا علي إبن المديني وقد كان إماما من أئمة الحديث، وعالما من أعلام العلل والرجال، وهو شيخ من شيوخ الإمام البخاري، لمّا سأله القوم عن أبيه أجابهم: ((سلوا عنه غيري. فأعادوا المسألة، فأطرق، ثم رفع رأسه فقال: هو الدين إنّه ضعيف))[٢].

---

(١) الكفاية ص٤٤.

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ص١٢٠، حققه وعلّق عليه بالانكليزية: فرانز روز نثال، ترجم التعليقات والمقدمة: الدكتور صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت.

ولقد شاع وذاع في البلاد ما قاله علي في أبيه، حتى قال قتيبة بن سعيد: دخلت بغداد، فجعلت أُملي عليهم في المجلس: حدثنا عبد الله بن جعفر (والد علي بن المديني)، فقام غلام في المجلس فقال: يا أبا رجاء، إبنه واجد عليه، فإذا رضي عنه كتبنا حديثه[١].

ولمّا سُئل جرير بن عبد الحميد الضبي عن أخيه أنس بن عبد الحميد أجابهم: لا يكتب عنه، فإنّه يكذب في كلام الناس[٢].

وهذا أبو داؤد السجستاني لمّا سئل عن ابنه عبد الله أجاب: ((ابني عبد الله كذّاب))[٣].

أمّا زيد بن أبي أنيسة، فكان يقول عن أخيه يحيى: ((لا تأخذوا عن أخي))[٤].

وأمّا وكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ، فكان والده على بيت المال، لذلك كان يقرن معه آخر إذا روى عنه[٥].

يقول الأستاذ الدكتور فاروق حمادة:

((ولقد كانت مسالك التعديل والتجريح دقيقة دقة مشاعر الإنسان وميوله، ومتشعبة تشعب نوازعه وأهوائه وتصرفاته، ولكنّها تستند أساسا إلى المحجة البيضاء، والكلمة السواء التي حمّلها الله –سبحانه– للأئمة، وأسلمها لها سيد الأنبياء، وفيها القول الفصل، والوزن العدل لكل قول وتصرّف وعمل...))[٦].

---

(١) التواصل بين المذاهب الإسلامية تأليف د. فاروق حمادة ص١١٤، الطبعة الأولى ١٤٢٦–٢٠٠٥، دار القلم، دمشق.

(٢) التواصل بين المذاهب الإسلامية ص١١٥.

(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ص١٢٠.

(٤) لزيادة الاطلاع ينظر: مقدمة صحيح مسلم ٢٧/١.

(٥) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص١٢٠.

(٦) المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل للدكتور فاروق حمادة ص١٠.

ونحب أن نشير هنا إلى أنّ علماء الجرح والتعديل كانوا يحملون حاسة مرهفة حين يصدرون أي حكم كان في كل راو من الرواة، إذ جعلوا الله رقيبا عليهم في كل حكم من أحكامهم، لذلك نجد الحافظ ابن حجر العسقلاني، يحذّر من أي تساهل يكون في أمر الجرح والتعديل فيقول:

((وليحذر المتكلّم من التساهل في الجرح والتعديل، فإنّه إن عدّل بغير تثبت، كان كالمثبت حكما ليس بثابت، فيُخشى عليه أن يدخل في زمرة من روى حديثا وهو يظن أنّه كذب، وإن جرح بغير تحرّز، أقدم على الطعن في مسلم بريء من ذلك، ووسمه بميسم سوء، يبقى عليه عاره أبدا))[١].

ومع هذه الحساسية المرهفة والدقة المتناهية التي كان عليها علماء الجرح والتعديل، فإن علماء الحديث لم يدعوا العصمة لهم في الاحكام التي اصدروها في الرجال، وكل ما قرروه ان هذه الاحكام اكثر صوابا واندر خطأ. يقول الحافظ الذهبي:

(نحن لا ندعي العصمة في ائمة الجرح والتعديل، لكن هم أكثر الناس صوابا، واندرهم خطأ واشدهم انصافا، وابعدهم عن التحامل، وإذا اتفقوا على تعديل او جرح؛ فتمسك به، واعضض عليه بناجذيك، ولا تتجاوزه فتندم، ومن شذ منهم فلا عبرة به، فخل عنك العناد، واعطِ القوس باريها...)[٢].

(١) شرح نخبة الفكر مع حاشية لقط الدرر ص١٥٧.

(٢) سير اعلام النبلاء ٨٢/١١

اختصاص الأمة الإسلامية بالسند الصحيح المتصل

اختص الله –سبحانه– الأمة الإسلامية بخصائص تميّزت بها عن الأمم الأخرى، ومن تلك الخصائص: ما انفرد به أهل السنة والجماعة، بالسند الصحيح المتصل لما يروونه عن النبي محمدﷺ، فيما يتعلّق بالعقيدة والشريعة والأخلاق، وكل ما له صلة بالإسلام[1]. فهي خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية ما

---

(١) اهتم أهل السنة والجماعة اهتماما بالغا بأمر السند –كما رأينا في الصفحات الماضية– وهذا الاهتمام ليس للشيعة الإمامية فيه نصيب فقد نقل المامقاني ما احتج به ائمة الشيعة الإخباريون النافون للحاجة إلى علم الرجال:

((إنّ أحاديثنا كلها قطعية الصدور عن المعصوم، وما كان كذلك فلا يحتاج إلى ملاحظة سنده)) تنقيح المقال في علم الرجال تأليف عبد الله المامقاني ١/١٧٧، المطبعة المرتضوية بالنجف ١٣٨١. هذا ما نقله عن أئمة الشيعة الإمامية ولم يرتض ما قالوه؛ لأنّ ملاحظة أحوال الرجال حاجة لا يستغنى عنها. ينظر: الإسناد من الدين ص٣٠.

وعدم اشتراط السند إلى النبيﷺ هو ما ذهب إليه الدكتور عبد الله الفياض من الشيعة الإمامية فقد قال:

((إنّ الاعتقاد بعصمة الأئمة جعل الأحاديث التي تصدر عنهم صحيحة، دون أن يشترطوا إيصال سندها إلى النبيﷺ كما هو الحال عند أهل السنة)) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة للدكتور عبد الله الفياض ص١٥٨، مؤسسة الأعظمي، بيروت. وأمّا زين الدين الجبعي المتوفى سنة ٩٦٥هـ فيذهب إلى وجوب اتصال السند إلى المعصوم، بنقل العدل الإمام عن مثله في الطبقات كلها، حتى ولو اعتراه شذوذ. ينظر: الرعاية في علم الدراية ص٧٧و ٧٩، وقواعد الحديث لمحي الدين الغريفي ص٢٢.

لذلك نجد الشيخ حسن زين الدين يعرّف الحديث الصحيح بقوله:

((ما اتصل سنده إلى المعصوم بنقل العدل الضابط عن مثله في جميع الطبقات)) ينظر: معالم الدين للشيخ حسن زين الدين ص٢١٦، نقلا عن الإمام الصادق لأبي زهرة ص٣٢٨.

ونشير هنا إلى أنّ اتصال السند عندهم يكون بالنبيﷺ أو بالإمام المعصوم، ولا يكون اتصاله بالنبيﷺ إلا نادرا، ولا يشترط سند الإمام المعصوم أن يتصل إلى النبيﷺ، ذلك لأنّ

بلغتها أية أمة كانت من الأمم قديما ولا حديثا. وهكذا صارت روايات السلف سجلا خالدا حفظ لأمتنا كل ما يتعلّق بديننا، وكثيرا مما يتعلّق بتاريخنا.

وحين يلقي الباحث بنظره في هذا السجل الخالد، يُعجب به أشد الإعجاب، إذ يصله بتاريخ قديم زاد العد عن أربعة عشر قرنا، ودوّن فيه كل ما يتعلّق بحياة المسلم الدينية والدنيوية.

ويزداد المسلم إعجابا بهذا السجل –مرة أخرى– حين يقرأ سيرة النبيﷺ وخلفائه الراشدين من بعده، فيتملّكه الزهو والإعجاب بتلك السيرة العطرة، إذ يعيش مع النبيﷺ في كل جانب من جوانب حياته: الدعوية والاجتماعية والسياسية والسلمية والحربية. وقد قيّض الله لهذه الأمة رجالا يمتلكون حافظة قلّ نظيرها لدى الأمم الأخرى، مع صدق في الحديث لا يدانيه صدق غيرهم، فأدى الصحابة كلّ ما سمعوه وشاهدوه عن نبيهم، وكانوا أحرص الناس على تبليغه ونشره، ولا تسل عمّا تحمله قسم منهم من التعب والنصب: فقد قطعوا الفيافي والقفار من أجل الحصول على أحاديث النبيﷺ.

ولم يكتفوا بهذا، بل صاروا يبحثون عن أكثر الرواة حفظا وضبطا، وأكثرهم مجالسة لمن يروون عنهم من غيرهم، ويكتبون الحديث من طرق كثيرة ليخلّصوه

قول المعصوم حجة، فلا يسأل من أين كان أخذه له، مستدلين بما ذكره الكافي عن الإمام جعفر الصادق: ((من عرف أنا لا نقول إلا حقا فليكتف بما يعلم منّا)). وكتاب الكافي هو الكتاب الأوّل لدى الشيعة الإمامية من حيث القدم، وأكثر= =رواياته تتصل بالأئمة المعصومين، ولا تتصل بالنبيﷺ إلا نادرا. يقول الشيخ محمد أبو زهرة –رحمه الله–:

((وأكثر ما يروى في الكافي واقف عند الصادق، وقليل منها ما يعلو إلى أبيه الباقر، وأقل من ذلك ما يعلو إلى أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه، ونادرا ما يقف عند النبيﷺ)). ينظر: الإمام الصادق للشيخ محمد أبي زهرة ص٣٣٩–٣٤٠. طبع سنة ١٤٢٥–٢٠٠٥، دار الفكر العربي، القاهرة.

من الخطأ والزلل والتصحيف، فاستطاعوا أن يميزوا بين من يحتج بخبره ولو كان منفردا وبين من كان لا يحتج بخبره إلا إذا جاء معتضدا بغيره، وميّزوا –أيضا– بين من لا يحتج بروايته ولكن يستشهد بها، ومن يعتمد على روايته في حال دون حال، كما ميّزوا بين المتساهلين في رواياتهم وبين المغفلين والكذابين...

وهكذا تتابع المسلمون جيلا بعد جيل، يبلّغون أحاديث النبيﷺ برواية العدل الضابط عن مثله، فنقلوا لنا كل ما يتعلّق بالإسلام من عقيدة وشريعة وأخلاق، كما نقلوا لنا شمائله وأوصافه وكل ما دقّ من سيرته وأقواله وأفعاله ورغباتهﷺ، يقول ابن قتيبة:

((وليس لأمة من الأمم إسناد كإسنادهم –يعني هذه الأمة–: رجل عن رجل، وثقة عن ثقة، حتى يبلغ بذلك رسول اللهﷺ وصحابته، فيبيّن بذلك الصحيح، والسقيم، والمتصل، والمنقطع، والمدلّس، والسليم))[1].

وينص الحافظ أبو بكر الرازي على أنّ الأمة الإسلامية هي الأمة الوحيدة التي هيّأ الله فيها أمناء حفظوا آثار الرسل، منذ خلق الله آدمعليه السلام، وليس في الوجود أمة أخرى قامت بمثل ما قام به المسلمون فيقول:

((لم يكن في أمة من الأمم، منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة))[2].

---

(١) الإسناد من الدين ص٣٤.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص٤٣.

ويقول أبو بكر محمد بن أحمد:

((بلغني أنّ الله خص هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد، والأنساب، والإعراب))[(١)].

وإذا كانت الأمم التي سبقت الإسلام في الزمن ليس لها إسناد، فهي تروي دينها عن صحف لا يُدرى من كتبها، ولا يعرف من نقلها؛ فإنّ الإسناد الذي اهتم به المحدّثون، واتخذوه منهاجا لهم، يطبقون قواعده بكل دقة وإخلاص وتجرّد مما تفرّد به المسلمون وحدهم. يقول ابن الجوزي:

((ليس في الأمم ممن ينقل عن نبيه أقواله وأفعاله على وجه يحصل به الثقة إلا نحن، فإنّه يروي الحديث منّا خالف عن سالف، وينظرون في ثقة الراوي إلى أن يصل الأمر إلى رسول الله، وسائر الأمم يروون ما يذكرونه عن صحيفة، لا يُدرى من كتبها، ولا يُعرف من نقلها))[(٢)].

إنّ الصحف التي كانت لدى الأمم الأخرى، خلطوا بها أخبارهم، فصاروا لا يميزون بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما ألحقوه بهما من الأخبار التي أُخذت عن غير الثقات، فيقول محمد بن حاتم بن المظفّر:

((إنّ الله أكرم هذه الأمة وشرّفها وفضّلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها: قديمهم وحديثهم إسناد، وإنما هي صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما جاء به أنبياؤهم، وتمييز بين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوا عن غير الثقات...))[(٣)].

---

(١) شرف أصحاب الحديث ص٤٠.

(٢) الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ لابن الجوزي ص٢٣، نقلا عن الإسناد من الدين ص٤٨.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص٤٠.

ويحذّر أبو بكر بن العربي المسلمين أن يسلكوا مسلك اليهود والنصارى فيتحدّثوا بغير إسناد، فيشتركوا في هذا مع قوم لعنهم الله فيقول:

((الله أكرم هذه الأمة بالإسناد، لم يُعطه أحد غيرها، فاحذروا أن تسلكوا مسلك اليهود والنصارى؛ فتحدّثوا بغير إسناد؛ فتكونوا سالبين نعمة الله عن أنفسكم، مطرّقين للتهمة إليكم، وخافضين لمنزلتكم، ومشتركين مع قوم لعنهم الله وغضب عليهم، وراكبين لسننهم))[1].

ويلخص الشيخ عبد الفتاح أبو غدة –رحمه الله– كلام ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) فيقول:

((نقل الثقة عن الثقة، حتى يبلغ به النبيﷺ مع الاتصال، يُخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه، وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان: خصّ الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها، وأبقاه عندهم غضا جديدا على قديم الدهور، يرحل في طلبه إلى الآفاق البعيدة من لا يحصي عددهم إلا خالقهم، ويواظب على تقييده من كان الناقل قريبا منه، قد تولى الله حفظه عليهم، والحمد لله رب العالمين، فلا تفوتهم زلّة في كلمة فما فوقها في شيء من النقل إن وقعت لأحدهم، ولا يمكن فاسقاً أن يُقحم كلمة موضوعة ولله تعالى الشكر))[2].

---

(١) فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات تأليف: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ١/٨٠، الطبعة الثانية ١٤٠٢–١٩٨٢، دار الغرب الإسلامي.

(٢) الإسناد من الدين ص٢٧.

ويقول الإمام ابن تيمية:

((الإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة، والرافضة أقل عناية به[١] إذ لا يصدقون إلا بما يوافق أهواءهم. وعلامة كذبه –أي عندهم– أنّه يخالف هواهم! ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي:

((أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم، وأهل البدع سلكوا طريقا أُخرى ابتدعوها واعتمدوها، ولا يذكرون الحديث، بل ولا القرآن في أصولهم إلا للاعتضاد لا للاعتماد))[٢].

وقال شيخ الإسلام مصطفى صبري:

((الطريقة المتبعة في الإسلام لتوثيق الأحاديث النبوية: أفضل طريق وأعلاها، لا تدانيها في دقتها وسموّها أيّ طريقة علمية غربية اتُّبعت في توثيق الروايات، ففي (صحيح البخاري) مثلا: ألفان وستُّ مائة واثنان من الأحاديث المسندة، سوى المكررة، انتقاها البخاري من مائة ألف حديث صحيح يحفظها، وفيه قريب من ألفي راو، اختارهم من نيف وثلاثين ألفا من الرواة الثقات الذين يعرفهم. وكتاب البخاري البالغ أربع مجلدات كبيرة، يبقى بعد حذف أسانيده على حجم مجلد واحد متوسّط الحجم. فهل سمعتم وسمعت الدنيا أنّ كتاب تاريخ في هذا الحجم، يروى ما فيه سماعا من ألفي رجل ثقة، يعرفهم المؤلف وغيره من أهل العلم، بأسمائهم وأوصافهم، على أن تكون كل جملة معينة من الكتاب، مؤلفة من سطر أو أكثر أو أقل تقريبا،

---

(١) لم يكن لدى الشيعة الإمامية اهتمام بالإسناد؛ ذلك لأنّهم يعتقدون أنّ أحاديثهم صادرة عن المعصوم الذي لا شك فيه؛ فلا يحتاجون إلى إسناد كما هو الراجح من أقوالهم.

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ١١/٤، طبعة بولاق.

سمعها فلان، وهو من فلان، إلى أن اتصل -الإسناد والسماع- بالنبيﷺ، فيقام لكل سطر من سطور الكتاب تقريبا شهود من الرواة يتحمّلون مسؤولية روايته))[١].

لقد كان هؤلاء الأئمة أول من ابتكر تحقيق الأخبار وتمحيصها لم يسبقهم إليه سابق ولم يلحقهم لاحق، فتكلموا في حفظ الرواة وعدالتهم، فوثّقوا من يستحق التوثيق، وطعنوا في الضعفاء والكذابين، وبهذا أوجدوا ما نستطيع أن نسميه علم نقد التاريخ في صورة من أدق صوره. واقتدى علماء السلف بهذا المنهج العلمي، فكتبوا في التفسير والتاريخ واللغة، متبعين منهج أئمة الحديث في السند المتصل إلى قائله، وتناقل ذلك تلاميذهم عنهم جيلا بعد جيل. وقد صار هذا محل إعجاب غير المسلمين من المؤرخين والباحثين في عصرنا الحاضر -وبخاصة في العالم الغربي-، فنهجوا نهجهم، وصنعوا صنيعهم، واتخذوا أصولهم في تدوين الحوادث التاريخية، حتى إنّ الأستاذ أسد رستم أحد علماء التاريخ -وهو مسيحي أرثذكسي- كتب كتابا في أُصول الرواية التاريخية عنوانه (مصطلح التاريخ)، فقال في الباب السادس منه:

((...ومما يذكر مع فريد الإعجاب والتقدير، ما توصّل إليه علماء الحديث منذ مئات السنين في هذا الباب، وإليك بعض ما جاء في مصنفاتهم، نورده بحروفه وحذافيره؛ تنويها بتدقيقهم العلمي، واعترافا بفضلهم على التاريخ...))[٢].

وقد نقل -بعد ذلك- نصوصا عن الإمام مالك، ومسلم بن الحجاج صاحب الصحيح، وأبي حامد الغزالي، والقاضي عياض، وابن الصلاح.

إنّ دقة الإسناد هذه هي التي حملت بعضا من المستشرقين على الرغم من طعنه ببعض تشريعات الإسلام، أن يقف مطأطئ الرأس أمام ما قام به المحدثون من جهود لحفظ سنة النبيﷺ، فقال (مرجليوث):

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين تأليف شيخ الإسلام مصطفى صبري ٤/٨٧.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د. مصطفى السباعي ص١٠٧، الطبعة الثانية ١٤٢٣-٢٠٠٣، دار السلام، القاهرة.

((ليفتخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم))[١].

□

(١) الإسناد من الدين ص٣٤.

التوراة والإنجيل ومسألة الإسناد

حين يدرس الدارس تاريخ البشرية في الأمم التي سبقت الأمة الإسلامية في الزمن، وينعم النظر في أمر تحرّيها ونقلها الرواية بالإسناد ومعرفة درجات الرجال من العدالة والضبط وغير ذلك، لا يجد أية أمة كانت من تلك الأمم قامت بنقل تاريخها وأحكام دينها بالسند. فقد كانت الحوادث التاريخية تُروى وينقلها الناس بعضهم عن بعض على علاّتها من غير تمحيص ولا تدقيق. ولم يكن ذلك خاصا بالحوادث التاريخية وحدها، بل إنّ الأديان بما تحتويه من عقيدة وشريعة وأخلاق كانت تُنقل عن طريق التلقي من ناقليها، من غير أن يبحث عن رجال نقلتها من العدالة والضبط والسند الصحيح المتصل.

هل للتوراة سند صحيح متصل

وصلنا القرآن الكريم بالسند المتواتر الصحيح المتصل ووصل كثير من أحاديث النبيﷺ إلينا بالسند المتصل الصحيح أو الحسن أو الضعيف، أمّا التوراة فلم تصل إلينا بسند متصل؛ إذ إنّ أسفار موسى الخمسة ليس لها سند متصل به. ويدلنا على هذا ما ذُكر في آخر التوراة في أمر وفاة سيدنا موسى‍عليه السلام، وكيف أقام بنو إسرائيل مناحة بعد وفاته.

إنّ الدارس لتاريخ التوراة يتبيّن له أنّها لم يكن لها ذكر في كثير من أزمان التاريخ؛ ذلك أنّ سيدنا موسى‍عليه السلام كان قد وضع نسخة التوراة مع اللوحين في التابوت، وبدأ الانحراف عن دينه يأخذ طريقه في الناس بعد وفاته، وتمكّن ذلك الانحراف في بني إسرائيل مع مرور الزمن، فظهر فيهم كفرة وفجرة ابتعدوا عمّا جاء به سيدنا موسى‍عليه السلام من عقيدة وشريعة وأخلاق، وظلّ هذا الأمر في انحرافه هكذا حتى جاء عهد سيدنا سليمان الذي حاول أن يعيد الناس إلى الدين الحق، وقد فتح في عصره التابوت، فلم يكن للتوراة فيه وجود. وبعد عصر سيدنا سليمان‍عليه السلام وقعت الاضطهادات ببني إسرائيل، وتعرّض بيت المقدس للسلب والنهب مرّات عدة.. وزاد

ذلك الانحراف حتى لقد بُني مذبح للأصنام في فناء بيت المقدس!! كل هذه المدة الزمنية الطويلة الأمد، ولم يكن للتوراة فيها أي ذكر كان، ولم تظهر أول نسخة للتوراة إلا بعد وفاة سيدنا موسى بمدة طويلة، وذلك حين آل الحكم إلى الملك (يوشيا بن آمون) حوالي ٦٢٦ -٥٩٨ ق.م- وكان ميّالا إلى التدين، فانتهز الفرصة (الكاهن حلقيا) وكان معاصرا لـ(يوشيا)؛ فادعى بعد ثماني عشرة سنة من حكم (يوشيا) أنّه عثر على نسخة التوراة في بيت المقدس، وأعطاها (شافان الكاتب)..

ويقف الباحثون رافضين لما ادعاه (الكاهن حلقيا)؛ إذ لا يُعقل أن تظل التوراة هذه المدة الزمنية الطويلة في بيت المقدس ولا يراها أحد قبل عصر (يوشيا)، ولا خلال الثماني عشرة سنة من حكمه. يقول العلامة رحمة الله الهندي-رحمة الله عليه-:

((والنسخة التي وجدت بعد ثماني عشرة سنة من جلوسه على سرير السلطنة لا اعتماد عليها يقينا، ومع كونها غير معتمدة ضاعت هذه النسخة -أيضا- غالبا قبل حادثة بختنصّر. وفي حادثته انعدمت التوراة وسائر كتب العهد العتيق في صفحة العالم رأسا..))[1].

ويعترف عدد من الكتاب أنّ التوراة التي يتداولها القوم الآن لم يقم بكتابتها كلها سيدنا موسى، فجاء في مقدمة الكتاب المقدس في الطبعة الكاثوليكية لسنة ١٩٦٠ ما يأتي:

((ما من عالم كاثوليكي في عصرنا يعتقد أنّ موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنّه أشرف على وضع النص الذي كتبه عديدون بعده، بل يجب

---

(١) إظهار الحق تأليف رحمة الله الهندي ص٤٣ الطبعة الثانية١٤٢٤-٢٠٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

القول: إنّ ازديادا تدريجيا سببته مناسبات العصور التالية الاجتماعية والدينية [أُضيف للتوراة]))[1].

ولقد اتضح من دراسات كثيرة قام بها علماء ومؤرخون من ذوي الاختصاص: أنّ التوراة الموجودة الآن لم تكتب في زمان واحد، بل كتبت في أزمان مختلفة، وقام أكثر من كاتب بكتابتها. يقول رحمة الله الهندي:

((إنّ التوراة المشهورة ليست التوراة التي صنفها موسى، ولا التي كتبها (عزرا)، بل الحق: إنّها مجموع من الروايات والقصص المشتهرة بين اليهود، وجمعها أحبارهم في هذا المجموع بلا نقد للروايات))[2].

وهناك أقوال كثيرة أُخرى لمؤرخي العهد القديم، تنصُّ نصّا صريحا واضحا على عدم وجود سند متّصل للتوراة إلى سيدنا موسى، أو إلى من نسبت إليهم. وحين عجزوا عن ذكر السند المتصل لها قالوا: بأنّ التوراة كتبت عن طريق الإلهام بعد ضياع الأصول الأولى لها. ويحق لكل باحث منصف أن يسأل: متى كان الإلهام المزعوم مصدرا من مصادر المعرفة.؟!!.

هل للأناجيل سند صحيح متصل

لا يجد الدارس للأناجيل سندا متصلا يصل الأناجيل بما أنزله الله على سيدنا عيسى‌عليه السلام. فإنّ سيدنا عيسى كان قد اختار اثني عشر تلميذا وبلّغهم ما بلّغه جبريل إليه، لكنّ تلاميذه لم يدوّن واحد منهم ما ألقاه السيد المسيح عليهم، واكتفوا بحفظه في الذاكرة. وتمضي الأيام، ويزداد الاضطهاد للنصرانية، فيصير من الصعب أن يفرّق أحد بين ما ألقاه جبريل إلى سيدنا عيسى‌عليه السلام وبين كلام سيدنا عيسى نفسه: فلم يُدوّن الإنجيل في عهده‌عليه السلام، ولم يُدوّن إلا بعد أن رفعه الله إليه بمدة مديدة من

---

(١) العرب واليهود تأليف أحمد سوسة ص١٦٨.

(٢) إظهار الحق ص٤٣.

الزمن. أمّا الذين قاموا بكتابة الأناجيل، فكانوا كثرة كاثرة، فقد كتب كل واحد منهم سيرة نبي الله عيسى وسمّاها إنجيلا. وتضاربت روايات الأناجيل حتى ما تكاد تجد إنجيلين يتفقان في ذكر حادثة واحدة. أمّا الأناجيل الأربعة التي يتداولها القوم الآن وهي أناجيل: (متى) و(مرقص) و(لوقا) و(يوحنّا)، فإنّها لم تُعرف إلا في (مجمع نيقية) سنة ٣٢٥م فقد اختاروها من بين نحو ٧٠ (سبعين) إنجيلا، وكل هذه الأناجيل منقطعة السند عمّن نُسبت إليهم، وذلك بسبب الاضطهاد المرير الذي أصاب النصرانية، حتى كاد أهلها يصيرون أُميين في شؤون كتابهم المقدّس. ولم يقع ذلك الاضطهاد على الناس –وحدهم– بل تعداهم إلى اضطهاد الكتب الدينية، فقاموا بإحراقها، وأقبلوا على الكنائس يهدمونها...فسرى الجهل بين الناس حتّى لم يستطيعوا أن يجتمعوا في أداء عباداتهم وتدارس عقيدتهم وشريعتهم. وإذا كانت الكنائس والكتب قد أصابها ما أصابها من الدمار بسبب ذلك الاضطهاد، فإنّ ما أصاب علماءهم الدينيين أكثر من ذلك: فقد قُتلوا شر قتلة من أجل محو الديانة النصرانية من الوجود، ودام ذلك الاضطهاد إلى أوائل القرن الرابع الميلادي؛ لذلك صارت الأناجيل الأربعة التي أخرجها القوم محل شك وريب لانقطاع السند بينهاوبين من تُنسب كتابتها إليهم؛ إذ إنّ تلك الكتب لم يُكتب لها الذيوع إلا في القرن الرابع، وقد نسبت كتابتها في وسط وآخر القرن الأوّل. وهكذا يدخل الشك والريب في نسبة هذه الكتب إلى أصحابها؛ لأنّها منقطعة السند عمّن نُسبت إليهم أولا، وللتناقض الكبير بين إنجيل وإنجيل آخر بعد ذلك، مع العلم أنّ الإنجيل الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام هو إنجيل واحد.

المصادر والمراجع

١- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- أدب الإملاء والاستملاء للإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣- الأدب المفرد للبخاري ، خرّج أحاديثه ووضع حواشيه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت

٤- الأذكياء، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي، ، دار النشر: مكتبة الغزالي.

٥- الإسناد من الدين تأليف عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الأولى١٤١٢-١٩٩٢، دار القلم، دمشق.

٦- إظهار الحق تأليف رحمة الله الهندي الطبعة الثانية١٤٢٤-٢٠٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧- الاعتصام للإمام الشاطبي ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة.

٨- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، حققه وعلّق عليه بالانكليزية: فرانز روز نثال، ترجم التعليقات والمقدمة: الدكتور صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩- أمثال الحديث مع تقدمة في علوم الحديث د. عبد المجيد محمود ، الطبعة الأولى، الناشر: مكتبة دار التراث، القاهرة

١٠- بحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور أكرم ضياء العمري، الطبعة الخامسة ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

١١- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد: محمود شكري الآلوسي، عُني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٢- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣- تدريب الراوي شرح تقريب النواوي للسيوطي، اعتنى به حسن شلبي وماهر محمد ثملاوي، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، مؤسسة الرسالة - ناشرون-.

١٤- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد تأليف أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق: مصطفى أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، دار النشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ١٣٨٧ هـ.

١٥- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف الإسلامية حيدر آباد الدكن.

١٦- التواصل بين المذاهب الإسلامية تأليف د. فاروق حمادة ، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥م، دار القلم، دمشق.

١٧- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير بتحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مطبعة الملاح ١٣٨٩ هـ -١٩٦٩م.

١٨- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩- الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، طبع في الهند سنة ١٣٧١ هـ-١٩٥٢م.

٢٠- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د. مصطفى السباعي، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ -٢٠٠٣م، دار السلام، القاهرة.

٢١- سنن الدارمي، تحقيق وتخريج السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المحاسن ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

٢٢- سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي اعتنى به محمد بن عيادي بن عبد الحليم، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٣م، مكتبة الصفا، القاهرة.

٢٣- شرح نخبة الفكر مع حاشية لقط الدرر.

٢٤- شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي بتحقيق: د. محمد سعيد خطيب أوغلى، دار إحياء السنة.

٢٥- العرب واليهود تأليف أحمد سوسة.

٢٦- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات تأليف: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ -١٩٨٢م، دار الغرب الإسلامي.

٢٧- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي طبع سنة ١٣٩١ هـ-١٩٧٢م، دار المعرفة، بيروت.

٢٨- كشاف اصطلاحات الفنون للشيخ محمد علي بن علي محمد التهانوي، وضع حواشيه أحمد حسن، الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٦م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٩- الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، مطبعة الجمعية العليا.

٣٠- معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه: السيد معظم حسين، منشورات المكتبة العلمية.

٣١- منهاج السنة النبوية لابن تيمية، طبعة بولاق.

٣٢- المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل للدكتور فاروق حمادة، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨م، دار السلام، القاهرة.

٣٣- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين تأليف شيخ الإسلام مصطفى صبري.

٣٤- هدي الساري لابن حجر العسقلاني، دار السلام في الرياض، ودار الفيحاء في دمشق.

المحتوى